علماء الإسلام في الأندلس

محاضرة ألقاها السيد

محمد الخضر حسين

في نادي جمعية الشبان المسلمين ـ بالقاهرة

باسم جمعية « الهداية الإسلامية »

مساء الأربعاء ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٤٦

يليها خطبة في موضوع

لماذا نحتفل بذكرى الهجرة النبوية؟

ألقاها الأستاذ السيد محمد الخضر حسين

في نادي جمعية الشبان المسلمين مساء غرة المحرم سنة ١٣٤٧

القاهرة

١٣٤٧

المطبعة السلفية ـ ومكتبتها

علماء الاسلام فى الاندلس

﴿ محاضرة ﴾

ألقاها السيد

محمد الخضر حسين

في نادي جمعية الشبان المسلمين ـ بالقاهرة

باسم جمعية ﴿ الهداية الاسلامية ﴾

مساء الاربعاء ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٤٦

القاهرة

١٣٤٧

المطبعة السلفية ـ ومكتبتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ○ وصلى الله على أفضل المرسلين ، وعلى آله وصحبه اجمعين

أيها السادة ،

أحدثكم عن أمة من أهل العلم عاشوا في السنين الخالية . ولا أقصد بحديثي عنهم الدعوة الى أن نأخذ بكل مظهر من مظاهرهم ، أو نقتدي على كل أثر من آثارهم ، فان لكل جيل شأنا ، ولكل دولة لبوسا ؛ وانما هي نظرة نلقيها على سيرة اولئك العلماء من الناحية التي يتمثل فيها أدب الاسلام وتتراءى فيها الهمة النبيلة ؛ وهي ناحية لا تختلف باختلاف المواطن ، ولا تتبدل ما تبدلت الاجيال

واذا كانت بلاد الاندلس قد احيط بها ، وتقلصت ظلال الاسلام من أقطارها ، وكان على علمائها الذين شهدوها يوم كانت تتقلص نصيب من التبعة غير قليل ، فنحن انما نحدثكم عن العلماء الذين ظهروا أيام شباب الدولة الاسلامية وكانوا العضد الاقوى في بسط سلطانها واقامة معالمها ، أو نحدثكم عن أفراد من العلماء نشأوا أيام هبوط تلك الدولة ، وقضوا من واجب العلم والارشاد ما استطاعوا ، ولكنهم وجدوا في الآذان وقرا ، وعلى

الابصار غشاوة « واذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمّرناها تدميراً »

﴿ سبب نهضة العلوم الاسلامية بالاندلس ﴾

تزهو العلوم بين الامة وتضرب أشعتها في طول البلاد وعرضها ، متى هيأ اللهُ لها من أمرها سببين اثنين : هما صحة طرق التعليم ، ثم ما تكون عليه الدولة من كياسة وشعور بقيمة العلم ورجاله المصلحين

أما صحة طرق التعليم فهي التى تنهض بطلاب العلم الاذكياء الى أن يرسخوا في فهم اصول الشريعة وتعرّف مقاصدها في وقت غير بعيد ، فيتيسر لطالب هذه العلوم أن يبلغ فيها أشدّه وهو لا يزال فى عنفوان شبابه ، فيتصدّى للتدريس أو التأليف أو الدعوة ، وعزمه في قوّة ، وهمته في نشاط ، وفؤاده في ذكاء

وأما كياسة الدولة ويقظتها لما في علوم الاسلام من سنن الرقى وسعادة الحياة فذلك ما يجعلها تعمل على نَفاقها ، وذلك ما يدعو الى التنافس في طلبها ، فلا يلبث الناس أن يروا لاهل العلم مواقف شريفة وآثاراً فاخرة ؛ وما هذه المواقف والآثار الا عصمة للعقول من أن تضل ، ووقاية للدولة من أن تستخف بالشرائع فتمقتها الامة وتشقى

قد يخرج من بين التعاليم الملتوية ، أو يظهر في عهد الدولة الجافية أفراد يسمو بهم صفاء الفطرة أن يكون علمهم غزيراً متناسقاً ، وتفكيرهم موزوناً مثمراً ، ولكنى أتحدث عن الثقافة الفائقة تسود بين طلاب العلم ، فهذه لا تظفر بها المعاهد والمدارس الاسلامية الا أن تستقيم طرق التعليم ، ويكون اولو الامر ممن يرجون لله وقارا

اذا اجتمع هذان الامران : سداد نظام التعليم ، وسلامة ضمير الدولة ، سعدت هذه المعاهد والمدارس وأطلعت من أعلام الهداية وحماة الفضيلة خلقاً كثيراً

وقد كان منهج التعليم في بلاد الاندلس جيدا ، وكان رجال دولها في أغلب أحوالهم ينطوون على ضمائر سليمة وسرائر مطمئنة بالايمان

نعنى بجودة منهج التعليم انهم كانوا يسيرون فى دراسة العلم على طريقة البحث في نفس العلم والغوص على لبابه ، ولم تأكل المختصرات المغلقة والمناقشات اللفظية من مجهوداتهم وأوقاتهم ماهم في حاجة الى انفاقه فى حقائق العلم ، وان حقائق العلم لشيء كثير

ولا يغيب عنا أنهم ابتلوا في أواخر حياتهم كما ابتلى غيرهم بشيء من هذه المختصرات ، واخذت المناقشات في ألفاظ المؤلفين تشغل طرفا من أوقاتهم ، ولكنها لم تشتد كما اشتدت في معاهدنا

منذ زمن ، وأوشكت ان تصير دون المباحث الاصيلة في العلم حجابا مستوراً

وأما احتفاء امراء الاندلس بعلوم الاسلام فان تاريخهم ينطق بأنهم كانوا يعملون لحياتها ونمائها ، ويوجهون عنايتهم الى الاستكثار من رجالها ، ولهذه العناية مظاهر شتى :

من هذه المظاهر رعايتهم لمقامات العلماء ، ونظرهم اليها بعطف واحترام . قال أبو عبد الله المقري في وصف الاندلس : « وان ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ويرفعون أقدارهم » وسنسوق الى حضراتكم في بعض الفصول الآتية وقائع تشهد بان امراء الاندلس كانوا يجلون علماء الشريعة ويحتملون منهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو كان وعظهم غليظاً خشناً ، ذلك لأنهم يحسون منهم الاخلاص حين ينهون وحين يأمرون ، وشأن المخلص في قول الحق أن ترمقه القلوب بمهابة وان كانت مطبوعة على قسوة واستبداد

ومن هذه المظاهر حملهم أهل العلم على التأليف فى علوم الدين ، وتلقيهم المؤلفات القيمة بما شأنه أن يبعث الهمم على الاتيان بأمثالها . وأذكر فى هذا الباب أن بعض علماء المالكية بالعراق شرع في تأليف سماه الاستيعاب وقصد فيه الى جمع أقوال

الامام مالك خاصة لا يشركما بقول أحد من أصحابه ، وكتب منه خمسة أجزاء ، ثم ادركه الموت وهو لم يتمه بعد ، ووقعت هذه الاجزاء الى الحكم بن عبد الرحمن الناصر فاعجب بها واقترح على أبي بكر القرشي وابي عمرو الاشبيلي ان يكملا هذا الكتاب وفتح لهما دار كتبه للبحث والتنقيب ، فاكملاه في مائة جزء ، ولما قدماه اليه ابتهج به سروراً ، وقلدهما منصب الشورى فى مجلس القضاء . على أن أول الاستاذين المؤلفين وهو ابو بكر القرشى لم يزد عمره يوم ولّي هذا المنصب على ثلاثين سنة

ومن هذه المظاهر أن في الامراء أنفسهم من كانوا يقبلون على درس علوم الشريعة درسا وافيا ، كعبد الرحمن الاوسط والحكم ابن عبد الرحمن الناصر ومجاهد العامري احد ملوك الطوائف شرقى الاندلس . ومنهم من كانوا يعقدون مجالس يتحاور فيها أهل العلم بحضرتهم ، وقد كان للمنصور بن أبي عامر مجلس في كل اسبوع ، يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ، ولا يدعه الا حين يخرج مجاهداً في سبيل الله

ومما نهض بالعلوم فى الاندلس اقبال أهل العلم على الرحلة الى الشرق ، ويقيمون فيه الشهور والسنين ، ثم يعودون الى أوطانهم بما يتجدد من علم نافع أو رأي راجح أو استنباط بديع ، وقلما يمر الناظر على حياة عالم كبير من قدمائهم ولا يجد له رحلة

يرحل علماء الاندلس الى الشرق ، وربما يملأ الرجل حقيبته من العلم ، أو يبلغ في الاطلاع على البلاد ما استطاع ، ينقلب الى وطنه ليبثّ ما استفاد من علم ، أو يحدّث بما شاهد من أحوال وآثار

وكان هؤلاء الراحلون يؤثرون العود الى أوطانهم على الاقامة بالشرق الا قليلا أذكر منهم ابن مالك وأبا حيان وأبا بكر الطرطوشي وأبا القاسم الشاطبي الامام في علم القراآت ، فان ابن مالك استوطن دمشق ، والثلاثة بعده استوطنوا القاهرة الى أن استلمتهم يد المنون

وممن وردوا الشرق فابتسم فى وجوههم ثم أبوا الا أن يعودوا الى وطنهم القاسم بن محمد بن سيار ، فقد لقى هذا الاستاذ في مصر حظوة بالغة ومقاما كريماً ، وعزم مع هذا على الاياب الى بلده بالاندلس ، ولما قال له العلامة محمد بن عبد الحكم : اقم عندنا فانك تعتقد رياسة ويحتاج الناس اليك ، أجابه بقوله « لا بد من الوطن » . قال القاسم بن سيار « لا بد من الوطن » لان مقاليد الامور فى وطنه بيد دولة وطنية لا تنظر الى من يعود اليها من الشرق بعين الريبة ، فتعجَلَ الى نفيه من الارض أو تضربَ عليه حصاراً من عيون الرقباء وآذان المتحسسين

﴿ مكانة علماء الاندلس في العلوم الاسلامية ﴾

كانت علوم الشريعة يوم فتحت الاندلس انما هي القرآن يتلى ، والحديث يروى ، وبصائر عرفت روح الاسلام واهتدت طرق الاستنباط ، فكان من الميسور لها أن تفصل لكل واقعة حكما صالحاً

وكانت الجيوش الفاتحة للاندلس تحمل في اجنحتها رجالا تفقهوا بين ايدي اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كحسين بن عبد الله الصنعاني والمغيرة بن أبي بردة العذري ومحمد بن اوس الانصاري وزيد ابن قاصد وعبد الرحمن الغافقي . ومن المعروف في التاريخ ان عمر ابن عبد العزيز أرسل عشرة من علماء التابعين ليفقهوا أهل إفريقية في الدين ، وأن من هؤلاء العلماء من دخلوا الاندلس لاول فتحها ، مثل بكر بن سوادة وحيّان بن أبي جبلة

وورد الاندلس من غير هؤلاء رجال أوتوا العلم بالقرآن والسنة فانبثت في تلك البلاد مباديء الدين الحنيف ، ولكن مدافعة الاعداء في الخارج ، وثورات الزعماء الطامحين الى الرياسة فى الداخل ، جعلت البلاد في حركات حربية عنيفة ، وانما ينهض العلم ويسير في انتظام ، حيث يكون الناس في سلْم وطمأنينة

جاء صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك

ابن مروان واقام في الاندلس دولة أموية مستوثقة العرى ، فاذا طوائف من العلماء يفدون من الشرق ضيوفاً على الغرب ، ورجال يرحلون من الغرب ثم يعودون بعد أن يشربوا من منابع العلم بالكاس الراوية ، فتدفق سيل العلم بالمدائن والقرى ، واصبحت الاندلس تضاهي العراق بعلومها ، وتباهيه بعلمائها . وهذه بقية من مؤلفاتهم تخلصت الينا من يد الاحراق والاغراق ، نشهد فيها العلم الزاخر والنظر الراجح والاسلوب الحكيم

ولا يسمح لى وقت هذه المحاضرة أن أبحث عن حالهم في العلوم بتفصيل ، فأكتفي بكلمات موجزة ادل بها على مكانتهم في التفسير والحديث والفقه والكلام ، وأصلها بكلمة في موقع علوم الفلسفة من عنايتهم ، وأدع الحديث عن تقدمهم في علوم اللغة وآدابها الى ساعة اخرى

﴿ تفسير القرآن ﴾

عنى علماء الاندلس بتفسير الكتاب العزيز ، وحظهم من الاجادة والتحقيق في هذا العلم كبير ، فلعبد الرحمن بقي بن مخلد تفسير يقول ابن حزم في وصفه : هو الكتاب الذي اقطع قطعاً لا استثنى فيه انه لم يؤلف في الاسلام مثله ، لا تفسير ابن جرير الطبري ولا غيره

ومن أثر علماء الاندلس في التفسير أن بعض من دخلوا في الاسلام ككعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام كانوا يطارحون الناس قصصاً واخباراً هي من نوع ما يتحدث به أهل الكتاب قبل الاسلام ، ومن أجل أن هذه القصص والاخبار لا تتعلق بالشريعة في أصل ولا فرع ، لم يبال بعض المفسرين أن يوردوها في تفاسيرهم دون أن يأخذوها بالنقد والتمحيص ؛ ثم ظهر بعد هذا الحافظ عبد الحق بن عطية الغرناطي وألف تفسيراً أربي فيه على من تقدم ؛ ومن مزاياه انه تحرى فيه من تلك الاخبار ما هو أقرب الى الصحة ، ثم جاء بعده ابو عبد الله محمد بن فرح القرطبي والف تفسيرا تحامى فيه القصص والتاريخ ، وصرف همته الى الاحكام واستنباط الادلة بل نجده في بعض المواضع يأتي على شيء من تلك الاخبار ويدفعها ببيان مخالفتها للمعقول أو المنقول

وتصدى طائفة من علمائهم لتفسير آيات الاحكام خاصة ؛ مثل منذر بن سعيد البلوطي وأبي بكر بن العربي وعبد المنعم بن الفرس . ومنهم من يؤلف تفاسير متعددة ، فلابي بكر بن العربي كتاب الاحكام وقانون التأويل وأنوار الفجر ، وهذا التفسير يبلغ ثمانين مجلدا

فعلماء الاندلس في مقدمة من خلصوا التفسير من أخبار واهية وروايات مصنوعة ، وفي مقدمة من بسطوا القول في

استخراج الاصول والاحكام من الآيات البينات ، ومن يقلب نظره في مؤلفاتهم يشهد بأنهم في مقدمة من حاربوا الآراء الفاسدة في تأويل القرآن

﴿ علم الحديث ﴾

نحن نعلم أن طائفة من علماء التابعين قد دخلوا الاندلس لاول الفتح ، وان طائفة اخرى تعد من حملة الشريعة هبطت الاندلس قبل أن تقوم الدولة الاموية ، ولكننا نجد الكاتبين في التعريف بعلمائها يقولون في شأن صعصعة بن سلام : انه أول من دخل بالحديث بلاد الاندلس ، وصعصعة هذا انما ورد الاندلس أيام عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الاموية . وكأنهم يريدون بما قالوا أن صعصعة بن سلام أول من دخل بالحديث بلاد الاندلس بعد أن انتظم أمر الرواية وصارت الاحاديث تضبط بالكتابة والتدوين

وأصبحت الاندلس في خلال المائة الثالثة دار حديث برجلين من رجالها رحلا الى الشرق وعادا اليها بعلم غزير ، وهما بقيّ بن مخلد ومحمد بن وضاح . قال أبو محمد بن حزم : واذا سمينا بقي ابن مخلد لم نسابق به الا محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج ، وكان محمد بن وضاح يرد كثيراً مما يروى على انه حديث

نبويّ ويقول « ليس هذا من كلام النبي ﷺ في شيء » ومثل هذا المقال إنما يصدر لذلك العهد من محدّث واسع الاطلاع

ومن محدثيها ابن عبد البر صاحب كتاب التمهيد الذى قال فيه ابن حزم : لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله اصلا ، فكيف احسن منه

ومن دلائل عنايتهم بالحديث أن حوالي قرطبة لذلك العهد قرى كثيرة ، وفي كل قرية منبر وفقيه مقاس ، وكان لا يضع القالس على رأسه الا من حفظ الموطأ ، وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث واضاف الى ذلك حفظ المدونة ، هذا حال مفتي القرية ! فماذا يكون حال العلماء فى مجلس الشورى والقضاء بقرطبة ونحوها من المدن ذات الارباض الفسيحة والضواحي العامرة

وقيام علماء الاندلس على منبعي الشريعة : التفسير والحديث هو الذي بلغ بهم أن كانوا في طليعة من حاربوا البدع والمحدثات ، فقد كتب فيها أبو بكر الطرطوشى وأثخنها أبو بكر بن العربي في مؤلفاته ، وقاتلها أبو اسحاق الشاطبي في كتابي الموافقات والاعتصام قتالا عنيفاً

علم الفقه

ظهر فى الشرق أعلام الاجتهاد والفتوى أمثال الائمة أبي حنيفة ومالك والاوزاعي والشافعى ، وأخذ الناس يتلقون أقوالهم

ومذاهبهم بالرواية والتدوين ، وكان ممن اختص بالامام الاوزاعي صعصعة بن سلام ، فقدم الاندلس أيام عبد الرحمن الداخل ، وبه انتشر مذهب الاوزاعى هنالك ، وأصبحت الفتوى تدور على هذا المذهب الى أيام هشام بن عبد الرحمن

فى أيام هشام بن عبد الرحمن رحل فريق من أهل الاندلس الى الشرق وجلسوا الى مالك بالمدينة وأخذوا عنه ثم عادوا بكتاب الموطأ ووصفوا من فضل مالك وسعة علمه ماعظم به صيته ، فانتشر مذهبه وبقي العمل فى القضاء والفتوى عليه الى أن أفلت شمس الاسلام من تلكم الآفاق

وذهب ابن حزم في سبب انتشار مذهب الامام مالك بالاندلس الى وجه آخر فقال : ان يحيى بن يحيى الليثى احد رواة الموطأ عن مالك كان مكيناً عند السلطان مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يلي قاض في أقطار الاندلس الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فاقبلوا على مايرجون بلوغ أغراضهم به ، على أن يحيى لم يل قضاء قط ، ولا أجاب اليه ، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم ، وداعياً الى قبول رأيه لديهم .

والتاريخ والمشاهدة يدلان على أن المذهب ينتشر في الناحية

حيث يختص اصحابه بمنصب القضاء ونحوه ، وينتشر في الناحية حيث يكون كبار علمائها او معظمهم ممن تفقهوا عليه وصاروا من أشياعه . ولعل انتشار مذهب مالك بالاندلس يرجع الى السببين كليهما

يتفقه أهل الاندلس على مذهب مالك بن أنس الا أن كثيراً منهم يأنسون في أنفسهم الكفاية للاجتهاد أو الترجيح فيأخذون بما يرونه الصواب وان خالف مذهب مالك واصحابه جميعاً

وممن أصبح مستقل النظر في الاحكام القاسم بن محمد بن سيار الذي قال فيه محمد بن عبد الحكم « لم يقدم علينا من الاندلس أعلمُ من القاسم بن محمد » وقال في شأنه ابن حزم « واذا سمينا القاسم بن محمد لم نباه به الا القفال ومحمد بن عقيل الفريابي »

كان القاسم بن محمد مستقل النظر وكان اذا استفتاه الناس أفتى بمذهب مالك ، ولما خاطبه أحمد بن خالد في هذا وقال له : اراك تفتي الناس بما لا تعتقد ، وهذا لا يحل لك . أجابه بقوله : « انما يسألونني عن مذهب جرى في البلد وهم يتقلدونه فافتيهم به ، ولو سألوني عن مذهبي لاخبرتهم به »

وممن كان لا يأخذ بمذهب مالك منذر بن سعيد البلوطي فانه مال الى مذهب الشافعي ثم انتقل الى الاخذ بالظاهر واطراح القياس ، ولغزارة علمه ورسوخ فضله قلده عبد الرحمن الناصر

القضاء بقرطبة وأخذ عليه أن لا يقضى الا بمشهور مذهب مالك ، فكان اذا جلس للفصل بين الناس قضى على مذهب مالك عملا بما شرط عليه الخليفة

وكذلك كان أبو محمد بن حزم فانه مال الى مذهب الشافعي ثم انتقل الى الاخذ بالظاهر والامتناع من القياس بدعوى أن نصوص الشريعة تتناول كل حادثة الى أن يأتي أمر الله . وصار لابن حزم هنالك شيعة ، ومن مؤلفاته في أحكام الفقه كتاب « المحلى بالآثار » الذي قال في وصفه عز الدين بنُ عبد السلام « لم يؤلف مثله فى الاسلام »

وانا لنجد الكاتبين في تاريخ الاندلس يقولون فى وصف كثير من علمائها : « وكان يميل إلى النظر والحجة » أو يقولون « كان يميل فى فقهه الى النظر والاخذ بالحديث » أو يقولون « له اختيارات فى الفتوى والفقه خارجة عن المذهب » أو يقولون « كانت له مذاهب أخذ بها في خاصة نفسه وخالف فيها أهل قطره »

وهذا يدلنا على أن علماء الاندلس يتفقهون على مذهب مالك ، ومنهم من يدرك مرتبة الاجتهاد أو الترجيح فيرجع الى الحجة والدليل

هذا شأنهم فى الفقة أما شأنهم فى أصول الفقه فقد وصفهم أبو

عبد الله المقَّري بان مرتبتهم فى هذا العلم كانت متوسطة ، وكتب ابن حزم رسالة سرد فيها مؤلفات الاندلسيين في علوم مختلفة ولم يذكر لهم فى علم الاصول ، ولو كتابا واحداً ، ووصل ابن سعيد هذه الرسالة بذيل أودعه مؤلفات زائدة على ما أورده ابن حزم ولم يأت لهم بمؤلف فى علم الاصول سوى مختصر المستصفى لابن الوليد ابن رشد . وقد وقفنا لبعض علمائهم على أسماء مؤلفات فى الاصول ككتاب المحصول فى علم الاصول لابي بكر بن العربي وكتاب احكام الفصول في علم الاصول لابى الوليد الباجي وكتاب تقريب الوصول الى علم الاصول لابن جزى . وبين أيدينا اليوم كتابان من أجلّ ما تجود بهما الانظار فى هذا العلم ، هما كتاب الاحكام لابي محمد بن حزم وكتاب الموافقات لابي اسحاق الشاطبي

﴿ علم الكلام ﴾

كان أهل الاندلس على سنة السلف ، حتى اتسع البحث في العقائد وحدثت فيها مذاهب ، فاقتدوا بأصول أبي الحسن الاشعري وكانوا يدرسون بالطبيعة ما يؤلفه علماء الشرق كأبى بكر الباقلاني وأبى المعالى وأبي حامد الغزالي ، ولم تكن مؤلفات علماء الاندلس فى هذا العلم بمقدار مؤلفاتهم فى التفسير والحديث والفقه ، وقد اعتذر ابن حزم عن قلة تصرفهم في هذا العلم بأن

بلاد الاندلس لم تختلف فيها النحل ولم تتجاذب فيها الخصوم اطراف الجدال والمناظرة ، ثم قال : فهي على كل حال غير عربية من هذا العلم

وجد في الاندلس طائفة كانت تذهب مذهب المعتزلة وتنظر على اصولهم مثل خليل بن اسحاق ويحيى بن السمينة وموسى ابن جدير وأخوه الوزير احمد ، وكان هذا داعية الى الاعتزال لا يستتر بذلك ، الا أنهم كانوا فئة قليلة لم يبلغ من شأنهم أن يجعلوا قرطبة كبغداد تعقد فيها مجالس المناظرة بين علماء الكلام على اختلاف مذاهبهم وآرائهم

ومن علماء الاندلس الذين بحثوا فى الكلام بنظر مستقل ابو محمد بن حزم ، وهذا كتابه « الفصل في الملل والنحل » ينحو فيه نحو المجتهد المطلق ، فقد يخالف الامام الاشعري وغيره من أهل السنة ، ويرد تارة على المعتزلة ، وينقض مرة آراء الفلاسفة

﴿ علماء الاندلس والفلسفة ﴾

يتقبل الدين الحنيف علوم الارض وعلوم السماء على تباين أسمائها واختلاف موضوعاتها ، فكان علماء الاندلس ممن قدروا علوم الفلسفة وأضافوها الى ما عندهم من فقه أو حديث ، وقد كان الامير عبد الرحمن الاوسط يجمع بين علوم الشريعة والفلسفة ،

وهو أول من درس الفلسفة من امراء الاندلس وتظاهر بها . وكان أبو عبيدة بن احمد ـ الذي يقولون : انه أول من اشتهر بعلم الاوائل ـ صاحب فقه وحديث ، وكان أبو الوليد بن هشام من حفاظ الحديث ، ويصفه مؤرخو الاندلس بأنه كان أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء . وما كان أبو بكر بن الطفيل وابو الوليد بن رشد الا من رجال الدين ، وكان كل منهما يعمل لبيان أن الفلسفة الصادقة لا تناقض الشريعة في حال

وأما ما أصاب الفلسفة وبعض الفلاسفة من مقت أو أذى فتبعته ترجع الى استبداد بعض الامراء أو جهالة بعض السوقة أو حماقة بعض المنتمين الى الفلسفة حيث يطيشون من بعض طرقها المظلمة الى تخبط في القول وزندقة ، ويحاولون اغواء النفوس الزاكية والقاءها في تهتك وتخاذل وشقاء

الذين يستضيئون بحكمة الاسلام شأنهم أن يبحثوا ما تحتويه علوم الفلسفة ويزنوه بقانون المنطق الصحيح ، فيقرّوا ما قام الدليل على صدقه ويطرحوا ما كان زعماً باطلا ، او افتراضاً لا يتكىء على حجة ؛ وفي علماء الاندلس من استضاءوا بحكمة الاسلام وخاضوا غمار الفلسفة على بصيرة فكانوا المثلَ القيم يشهد بأن الفلسفة التي هي بنت الحجة ، لا تتعاصى أن تجتمع مع مبادىء الاسلام في نفس واحدة

﴿ اعتزاز علماء الاندلس بمقاماتهم العلمية ﴾

أخرجت معاهد العلم بالاندلس رجالا كانوا يعتزون بمقاماتهم العلمية ، فلا تستخفهم الحظوة عند رئيس أعلى ، ولا تتعاظمهم الولايات وان كبُر سلطانها وملأت الابهة ما بين جوانبها ، ويتجلى هذا الخلق العظيم في مظاهر كثيرة ، واليكم طائفة من أمثلتها :

من هذه المظاهر أن فريقاً منهم تقلدوا منصب القضاء في قرطبة وغيرها فاعتصموا فيه بحبل العدل ، وأقاموا المساواة على وجهها ، فلا فضل لصاحب الدولة على أدنى الناس منزلة وأقلهم ناصرا الا بتقوى الله

رفع رجل من كورة جيان الى محمد بن بشير قاضي قرطبة قضية على الحكم بن هشام صاحب الاندلس ، ولما استبان القاضي صحة البينة حكم على الامير وأذنه بانه اذا لم ينقد للحكم ويُذعن لانفاذه ، تخلى عن ولاية القضاء غير حريص عليها ، فما وسع الامير الا أن يمد عنقه لقضاء محمد بن بشير مرغما

فسيرة ابن بشير في نحو هذه الواقعة دليل على خُلق اعتزازه بالعلم ، وأنه لم يتقبل الولاية الا ليظهر حقا أو يصرع باطلا

ورفعت الى محمد بن بشير هذا قضية كان أحد الخصمين فيها سعيد بنَ عبد الرحمن الداخل عمّ الحكم واستشهد سعيد بن عبد الرحمن

في القضية بالحكم نفسه وكان يحسب شهادة أمير البلاد ضربة لازب وأنها لا تقع في مجلس القاضى الا موقع الحجة القاطعة للنزاع ، فلما نظر ابن بشير في الشهادة قال لوكيل سعيد بن عبد الرحمن « هذه شهادة لا تعمل عندي ، فجئني بشاهد عدل » فبهت الوكيل دهشة وأنهى سعيد الامر إلى الحكم وأخذ يغريه بالقاضى ويحرضه على الايقاع به ، فقال له الحكم : القاضى رجل صالح لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولست أعارضه فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله . ولما خوطب ابن بشير في رد شهادة الحكم قال : انه لا بد فى الشهادة من الاعذار ، ومن الذي يجترىء على الطعن في شهادة أمير المؤمنين لو قبلتها ، واذا لم أعذر كنت بخست المشهود عليه حقه . ولمنذر بن سعيد البلوطي في هذا الشأن وقائع يرفع بها العدل رأسه عزيزا متعاظما . ومن هذه الوقائع أن الخليفة عبد الرحمن الناصر دعته الحاجة إلى شراء دار ووقع اختياره على دار يملكها بعض الايتام ، فارسل اليها مقوما وأرسل من يخاطب ولى الايتام في بيعها ، فذكر له الولى أن بيع الاصول موقوف على رأي القاضى ومشورته ، فارسل الخليفة الى القاضى منذر بن سعيد ليأذن ببيع الدار ، فاجابه منذر بان ليس للايتام حاجة الى بيع هذه الدار ، فان بذلت لهم من الثمن ما تستبين به الغبطة اذنت الولى ببيعها منك ، فسكت الناصر حينا وخشي

منذر أن تنبعث منه ثورة يهتضم بها حق الايتام فامر بنقض بناء الدار وباع انقاضها فكانت قيمة الانقاض فوق ما قومت به للخليفة من قبل ، فاتصل الخبر بالناصر فسأل القاضي عما صنع فقال له نعم ، وأخذت فيما صنعت بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » فصبَر الناصر وقال : نحن أول من ينقاد إلى الحق فجازاك الله تعالى عنا وعن امانتك خيرا . ان سيرة أمثال محمد بن بشير ومنذر بن سعيد تنبه الناس الى أن علوم الاسلام ترفع همة الراسخ في فهمها ، وتطبع في نفسه عزة وتقوى يجعلان القضاء في حرية فوق الحرية التي تسنها هذه القوانين الوضعية

ومن مظاهر اعتزازهم بالعلم أن كثيراً منهم كانوا يزهدون في المناصب ولا يقيمون لها ، وإن عظم سلطانها ، وزنا . فهذا ابو محمد بن حزم كان وزيرا لعبد الرحمن بن هشام الاموى فرأى ان مقام العلم فوق كل مقام فخلع طوق الوزارة من عنقه اختيارا ، وأقبل على البحث والتأليف ، فقدم عملا صالحا وأبقى أثرا فى العلم نافعا

وهذا زياد بن عبد الرحمن أحد أصحاب مالك الذين دخلوا بمذهبه بلاد الاندلس أراده الامير هشام بن عبد الرحمن على قضاء قرطبة بالحاف فابى قبول هـذا المنصب بتصميم ، ومما اتخذه وسيلة للتخلص من الولاية أن قال للوزراء الذين خاطبوه في شأنها وأبلغوه

عزم هشام على توليته إياها . أما إن أكرهتموني على القضاء ، فاعلموا أنه إن أتاني مدع في شيء بأيديكم ، لا يكون الا أن اخرجه منكم ثم أجعلكم مدعين فيه حتى تقيموا عليه البينة . فلما سمعوا منه هذه العزيمة تيقنوا أنه سيفعل ما يقول ، فسعوا لدى هشام في معافاته وصرف الولاية إلى غيره

﴿ نظر علماء الاندلس في أحوال الامة وغيرتهم على مصالحها ﴾

نرى في علماء الاندلس من لا يقصرون أنظارهم على الوجهة العلمية البحتة ، بل يمرون بها في كثير من الاوقات على أحوال الجماعة ليعرفوا ما يطرأ عليها من خلل ، وما تحتاج اليه من إصلاح . ينبئنا التاريخ أن كبار العلم في القرى المجاورة لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة في قرطبة ويطالعونه بأحوال بلدهم . وينبئنا التاريخ بأن في علماء الاندلس طائفة لا يغضون أبصارهم عما يصنع ولاة الامور ، ثم لا يكتمون النصيحة إذا أبصروا عوجا في السياسة أو حيفا في الحكومة أو تبذيرا في الانفاق

عاد أبو الوليد الباجي من الشرق فوجد ملوك الطوائف بالاندلس أحزابا متفرقة فادرك سوء عاقبة هذا التفرق ودفعته الغيرة أن قام يسعى بينهم بالصلح ولكنه نفخ فى عظام ناخرة ، فكان كلما وفد على ملك منهم لقيه بالتقريب والترحيب ، وهو في الباطن يستجهل نزعته ، ويستثقل طلعته . فلم يبلغ أن يعقد بين

أولئك الاحزاب وفاقا . ومواقف منذر بن سعيد البلوطي في وجه عبد الرحمن الناصر منكرا عليه الاسراف في تشييد المباني والغلوّ في زخرفتها مبسوطة في كتب التاريخ دائرة على ألسنة الادباء

والعلماء الذين ينفقون شيئا من أوقاتهم في البحث عن أحوال الاجتماع ومقتضيات السياسة ، يتوفقون أكثر من غيرهم الى أن يصوغوا فتاويهم على قدر المصالح المعتد بها في نظر الشريعة .

لما أراد سلطان المغرب الاقصى يوسف بن تاشفين انقاذ الاندلس من مخالب اعدائها المتحفزين للوثوب عليها ، استفتى أهل العلم في أخذ معونة من الامة يستعين بها على دفاع اولئك المتحفزين ، فاحجم بعض الفقهاء من غير أهل الاندلس أن يفتيه بجواز ذلك ، ولكن قضاة الاندلس وفقهاءها ومنهم ابو الوليد الباجي كانوا يحسون العدو على مقربة من ديارهم ويذوقون مرارة وضعه الضرائب على امرائهم وينظرون الى عاقبة استيلائه على أوطانهم كانهم يرونها رأي العين ، فأفتوه بأخذ المعونة من الامة زيادة على ما هو المفروض عليها من نحو مقادير الزكاة

وفي علماء الاندلس رجال كانوا يعملون لحماية البلاد بأنفسهم ، ولم يودعوا هذه الحياة إلا وهم مرابطون في الثغور أو تحت ظلال السيوف . كان محمد بن عبد الله الليثي قاضي قرطبة يخرج الى الثغور ويباشر اصلاح ما اختل منها ، حتى وافاه الموت وهو في

بعض الحصون المجاورة لطليطلة . وكان القاضي سليمان بن موسى الكلاعي من أولى البسالة والاقدام ، يشهد مواقع القتال بنفسه الى أن توفي في احدى الغزوات شهيداً في سبيل الله

ولكثُر ما نجد في تراجم علماء الاندلس أن زيداً استشهد في غزوة كذا ، وعمرا مات مُنصرَفه من غزوة كذا ، وبكرا توفى مرابطاً في ثغر كذا ، الى من لا يحصيهم القلم حسابا

●●●●

هذه صحيفة من تاريخ علماء الاندلس تلوناها كالتذكرة لشباننا الناهضين ، وعسى هذه المعاهد والمدارس الاسلامية أن تخرج لنا رجالا يبهرون الناس علماً وجلالة ويذودون عن الشريعة نفراً يتهافتون على اطفاء نورها ، والسلام على العلماء المصلحين المجاهدين ورحمة الله

لماذا نحتفل بذكرى الهجرة النبوية؟

خطبة للاستاذ السيد محمد الخضر حسين
ألقاها في نادي جمعية الشبان المسلمين ، مساء غرة المحرم سنة ١٣٤٧

في وادٍ غير ذي زرع وبلدٍ غير ذي علم ، طلعت نفسٌ كان لها من العظمة ما تصغر أمامه كل نفس يذكرها التاريخ باعجاب ، تلك هي نفس محمد الذي دعا بالحجة فهدى ، وساس بالعدل فأرضى ، وجاهد بالحسام فأزكى

نشأ محمد — صلوات الله عليه — بين قوم يتخذون من الحجر آلهةً ، ومن الوهم عقائدَ ، ومن المنكرات عاداتٍ وسُنناً ، حياةٌ تسجد للاحجار ، وعقول تتخبّط في ضلال ، وجسوم تتقلب في خسار . نشأ محمدٌ في هـذه البيئة المفعمة جهلا وغواية ، فاذا هو ينطق بالحكمة ويدعو الى النور الذي عمي عنه كبار الفلاسفة أحقابا

كان زعماء قريش يمشون في الارض مرحا ، ويزدرون المستضعفين من الناس كبراً وطغياناً ، وكان محمد — صلوات الله عليه — يمشي على الارض هونا ، ويجلس الى الضعفاء في تواضع ووقار ، فعلم الناس أن الطبقة التي يتحامى رفيع القدر أن يجلس اليها انما هم أولئك الذين لا يعرفون أن في الملابس ثوباً فاخراً يقال له التقوى ، وأن كانوا أولي ثروة أو رياسة

كان أولئك الزعماء يتنافسون في متاع هذه الحياة ما استطاعوا ، وكان محمد ـ صلوات الله عليه ـ لا يسمو بهمته الا حيث تُدني الفضيلة أغصانها وتمدُّ السعادة الباقية أسبابها ، فعلم الناس أن في اجتلاء الحكمة والتزام عمل الخير لذةً تفوق هذه الملاذّ التى يطلق فيها عبيدُ الشهوات أعنتهم

نظر الله الى قلب محمد وهو كالنور في مصباح والمصباح في زجاجة ، فاختاره مهبطاً لوحيه ، وأقام على رسالته من الآيات البينات ما لو زادت على وضوحها شيئاً قليلا لكان الايمان بمحمد وبما بُعث به محمد من قبيل القسر والالجاء . وحكمة الله اقتضت أن يكون في الناس سعيد وشقي ، ورشيد وغويّ ، لهذا كانت آيات نبوّة محمد ـ صلوات الله عليه ـ منتهيةً في جلائها الى حد يحتاج معه الى شيء من سلامة الفطرة أو النظر برويّة

رأى زعماءُ قريش أن في دعوة الاسلام ما يقضى على زعامتهم ويفتح عيون العرب فى عوَج أخلاقهم وسفه أحلامهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يعترضوا هذه الدعوة بما وجدوا من حيلة ، وبما ملكوا من قوة ، والدين الذى يرفع همم معتنقيه الى ما فوق الجوزاء ، ويأبي لهم أن يكونوا للفجار عبيدا أو أولياء ، يكره الطغاةُ من الزعماء أن يسمعوا له ذكرا ، أو يشهدوا له مظهرا

لا أحدّثكم عما لقي رسول الله ﷺ من كيد وأذى ، وانما

اطارحكم كلمة في واقعة الهجرة وما كان لها من الاثر الذي استحقت به أن تكون سنتها مبدأ التاريخ في الاسلام

قضى رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة وهو يدعو الى الدين الحنيف ، ويعاني من الشدة والاذى ما لو لقيه طالب رياسة أو دنيا لنفد عزمه وصرفه اليأس الى وجهة اخرى

كان ـ صلوات الله عليه ـ يبادر فرصة الموسم من كل سنة حيث تفد قبائل العرب على مكة من كل سبيل ، فيطوف عليها واحدة بعد اخرى ، ويدعوها كما أمر الله أن تدعى ، ثم يعرض عليها أن تتولى دفاع من يقصدونه بأذى حتى يبلّغ رسالات ربه ، ويقول « ألا رجل يعرض عليّ قومه ، فان قريشاً قد منعوني أن ابلغ كلام ربّي »

فمن رجال هذه القبائل من يردون عليه أسوأ ردّ ، فيحتمل رسولُ الله هذا اللقاء الجافي صابراً ومحتسباً به أجراً عند الله ، ومنهم من تلين قلوبهم للقرآن ويعتذرون عن حمايتهم له بأنهم لا يستطيعون أن يعقدوا على قومهم أمراً وهم غائبون

حضر الموسم الذي أراد الله أن يكون فاتحة اظهار الدين وانجاز ما وُعد الرسول والذين آمنوا ، فقام عليه الصلاة والسلام يدعو القبائل ويعرض عليها حاجته الى أنصار شأنه في كل موسم ، حتى كان عند العقبة فلقي ستة نفر من الخزرج فدعاهم الى صراط

الله السويّ فانشرحت صدورهم وعادوا الى يثرب وهم مسلمون .
وقدم منهم في العام القابل اثنا عشر رجلا : خمسة ممن أسلموا فيمن سلف وسبعة من غيرهم ، فبايعوه عند العقبة على أن لا يُشركوا بالله شيئا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتون ببهتان ، ولا يعصوه في معروف ، بايعوه على هذا ثم عادوا الى وطنهم وقلوبهم تفيض بالايمان مما عرفوا من الحق وقاموا يبث الدعوة حتى فشا الاسلام في المدينة ، وقدم منهم في العام القابل ثلاثٌ وسبعون رجلا وامرأتان وبايعوا رسول الله عند العقبة على أن يكونوا انصاره الى الله . وعقدت هذه البيعة سرًّا ، لا يعرفها غير المسلمين من الخزرج وقريش

بعد أن اعتنق الاسلامَ رجالٌ من يثرب وعاهدوا رسول الله على أن يحاربوا دونه الاسود والاحمر أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة فانطلقوا اليها أرسالا

أحست قريش أنَّ أمْرَ رسول الله قد أخذ شأناً غير الشأن الذي عهدوا ، وأوجسوا خيفة من أن يلتحق الرسولُ عليه الصلاة والسلام بأصحابه المهاجرين والانصار ، فيكون في مَنْعة ومَنجاة من سيطرتهم ، ويتسع له المجالُ لان يعمل على إعداد قوّة تذهب بزعامتهم وتُخلي دار الندْوة من مؤتمراتهم ، فما كان منهم سوى أن

اجتمعوا في دار الندوة يأتمرون بالرسول ويبيّتون ماذا يصنعون ، وهي المؤامرة المشار اليها بقوله تعالى « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »

عقدوا الرأي على أن يغروا سيوفهم بحياته ، ولكن الله سلّم فعصمه من شرهم ويسر له سبيل البعد من ديارهم . فخرج وأبو بكر الصديق يرافقه في سبيله حتى نزل من المدينة منزلا مباركا، وانتظم به شمل أصحابه المهاجرين والانصار

كان لهذه الهجرة المباركة الاثر الخطير الخالد ، وكانت لها اليد التي خلعت على العرب وغير العرب هداية وحرّية وعلما ، وهذا ما نظر اليه أصحاب رسول الله حين استشارهم الخليفة عمر بن الخطاب سنة ستّ عشرة بعد الهجرة في أمر التاريخ ، وقالوا : ان عام الهجرة هو الوقت الذي عزّ فيه الاسلام وأُسّس فيه رسول الله المساجد وعَبَدَ اللهَ فيه آمنا . ومن أهل العلم من يقتبس هذا الذي أجمع عليه الصحابة من القرآن نفسه ، فان الله تعالى يقول في مسجد قُبا الذي أُسسه النبي ﷺ لاول الهجرة « لَمَسْجِدٌ أُسّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه » فقوله « من أوّل يوم » باطلاق يوم عن الاضافة ملائم لان يكونَ وقتُ الهجرة مبدأ التاريخ العام في الاسلام

من أثر الهجرة النبوية ذلك التوادد والاتحاد الذي ربط قلوب طائفة من عدنان وهم المهاجرون ، بطائفة من قحطان وهم الانصار . وهو توادد واتحاد دلّنا على أن صلة الدين الحنيف أحكم وأزكى من كل صلة تربط بين الاشخاص أو الطوائف أو الشعوب فمن ظفر بأمة من الناس انتظمت بينها هذه الصلة في صفاء وتأكيد فليقارع بها ما شاء فانه لا يرى الا متانة وإقداماً وثباتا . فالهجرة النبوية كانت الوسيلةَ الى تأليف حزب مصلح لم ينشب أن قهر الذين طغوا في البلاد ، ومدّ سلطانه العادل في الشرق والغرب الى مكان بعيد

كان الناس بمكة ما بين مؤمن صريح ، ومشرك سريرته كعلانيته . اما بعد الهجرة حيث أصبح للاسلام شوكة وعزّة فقد ظهر الصنفُ الذين يسمّون «المنافقين» وكان النبيُّ ﷺ يأخذهم بالظاهر ، ويدَع سرائرهم وحسابهم الى علاّم الغيوب . وفي قبول رسول الله لهذا الصنف منحازاً الى صفوف المسلمين مَصالح لا يستهان بها ؛ فكم من فتيان جاهدوا في سبيل الله باليمين واليسار ، وما خرجوا الا من أصلاب أولئك المرائين الذين يقومون الى الصلاة وهم كسالى

فالهجرة النبوية أقامت للاسلام سطوة ، وجعلت كثيراً من

المخالفين يلبسون آدابه فى الظـاهر وهم كارهون ، ومن هؤلاء من يترددون على مجالس رسول الله وتكثر مشاهدتهم لدلائل نبوَّته فينقلبون الى هداية ، ومنهم من يشبُّ ابناؤهم وقد الفوا الاسلام وعرفوا حقائقه ، فلا يبلغون الحلم الا وهم من أخلص دُعاته وأقوى حمـاته

قرر الاسلام مبـدأ الحرية الصحيحة بمثل قوله تعالى « لا تَظلمون ولا تُظلمون » وفرض على امتـه أن يقيموا دولة عزيزة الجانب نافذة الارادة ، فقال تعالى « وان يَجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سَبيلا » والهجرة النبوية كانت الخطوة الاولى التي تقدَّم بها المسلمون الى التمتع بالحرية فى كل حق ؛ وكانت الحجر الاول في أساس دولتهم المستقلّة كما يريد الله ، فاذا احتفلنا بأول يوم من سنة الهجرة النبوية فانا نحتفل بذكرى حادثة هي رمز ظهور الاسلام ورمز حريته الصحيحة واستقلاله المطلق من كل قيد